Arabic and World Literature:
Comparative and Multidisciplinary Perspectives

AWL-294, 2022
DOI: 10.31526/AWL.2022.294

المحتال واغترابه في نوادر أشعب بن جبير و"شيطان في الجنة" لهنري ميللر

نضال الشمالي

كلية التربية والآداب، جامعة صحار، سلطنة عُمان

nshamali@su.edu.om

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل خطاب الحيلة في الأدب ضمن سياق الاغتراب؛ إذ يتجلى هذا الخطاب بمعطياته المعقدّة في كثير من مظاهر شخصية المُحتال في نموذجه العربيّ ونموذجه العالميّ. وشخصية المُحتال يمكن أن تُدرس دراسة نفسية على الأغلب، إلا أنّ المجتمع الذي تنتمي له هذه الشخصية يُعدّ سبباً رئيساً في اغترابها. وتتخذ هذه الدراسة من نوادر "أشعب بن جبير" وأخباره المثبتة في كتاب الأغاني للأصفهاني وغيره، ومن شخصية كونراد تيريكان التي صنعها الروائي الأمريكي هنري ميللر (1891–1980) في روايته "شيطان في الجنة" (1956) – مجالاً للمقارنة بين العملين ضمن مفهوم التوازي كما أقرته المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن، ونهج التوازي في هذا السياق حاضر لعدم ثبوت صلات تاريخية مؤكدة تشير إلى تأثر ميللر بنوادر أشعب. والمشترك بين أنهما تأسّسا ضمن إطار من الاحتيال ونسق من الاغتراب، فهاتان الشخصيتان تحققان مجالاً خصباً من المقارنة التي يُنتظر أن تُفرز قراءة لظاهرة المحتال في سياق الدراسات المقارنة، لاستدراك المشترك بينهما ومظاهر الاغتراب لديهما.

كلمات مفتاحية: نوادر شعبية، رواية حديثة، اغتراب، تواز، محتال، مقارنة، شخصية.

The Fraudster and His Alienation in Ashʿab's *Anecdotes* and Henry Miller's *A Devil in Paradise*

Nidal Al-Shamali

College of Education and Arts, Sohar University, Oman

nshamali@su.edu.om

Abstract:

This study aims to analyze the discourse of resourcefulness in literature within the context of alienation. The complex aspects of such discourse are manifested through the personality of the fraud character both in his Arab and global models. The character of the fraud is often studied from a psychological perspective; nevertheless, society is the major reason behind his alienation. This research is a comparative study of the two models of the fraud: "Ashʿab bin Jubayr" and his news as cited in the *Book of Songs* by al-Iṣbahānī, and Conrad Moricand in *A Devil in Paradise* (1956) by Henry Miller (1891–1960). The parallel comparative approach suggested by the American School of comparative literature is suitable for this study, bearing in mind that there is no evidence that Miller was influenced by Ashʿab's popular

anecdotes. However, their characters have been created within the same framework of deception and alienation. These two personas provide a fertile contrastive outlook expected to result in a reading of the fraud phenomenon from a comparative point of view. The paper will highlight the common as well as the different aspects of deception and alienation as manifested by each character.

Keywords: popular anecdotes, modern novel, alienation, parallelism, trickster, comparison, character.

تمهيد

استطاعت دراسات التوازي أن تفتح الباب واسعاً أمام تجديد هِمم الدراسات المقارنة وتوسّعها حيال حضارات العالم وثقافاته المتعددة والمتجددة، رغم أن العديد من المقارنين العرب (القللي 122) صرفوا اهتمامهم عن هذا المصطلح لاعتبارات نقدية تجعل من مفهوم الموازنة عند العرب تأصيلاً لمصطلح التوازي في العصر الحديث لدى السلف، فضلاً عن أسبقية المدرسة الفرنسيّة وترسيخها لمبدأ التأثر والتأثير. يقول رينيه ايتامبل "إنّ أول فكرة تفرض نفسها على المقارنين هي نبذ فكرة الغلو وطنياً ومحلياً، وأن يعترفوا في نهاية الأمر أنّ الحضارة البشرية لا يمكن أن تفهم دون مرجعيّة ثابتة لتلك التغيرات التي تصيب القيم، التي تمنع تعقيداتها على أيّ فرد أيّا كان أن يصف اختصاصنا انطلاقا من لغة ما، أو بلد ما (Etiemble 15)"، وهذا النبذ شكل من أشكال الاتصال المعزّز لجهود المقارنين عبر العالم.

يقوم الأدب المقارن على مبدأ التواصل والتفاعل بين الثقافات والقوميات للخروج من دوائر المركزيات الضيقة إلى فضاءات المشترك الإنسانيّ بغية التقريب بين المبدعين، وقد دعا كل من كلودون وحداد إلى الخروج من المقارنة الثنائية بمفهوما البسيط إلى علم المقارنة الذي نصل إليه بتوسيع دائرة المقارنة لتشمل عناصر غير متجانسة (كلودون 17).

والتوازي مفهوم ريادي في المدرسة الأمريكية للأدب المقارن ويعني في أبسط حالاته "الكشف عن وجوه التماثل في البيئة أو الفكرة أو المزاج أو الأسلوب بين أعمال مختلفة لا يربط بينها أي رابط من حيث الصلات التاريخية أو علاقات التأثر والتأثير الأكيدة (بكار 67)"، ويعرفه المعجم العام للآداب والفنون الجميلة وعلوم الأخلاق والسياسة بأنه "التقريب الذي يقوم به كاتب بين عملين مهمين من أجل استجلاء مميزاتها المتشابهة والمتعارضة (القللي 121)"، ويعود فضل هذه التماثلات إلى عوامل اجتماعيّة وأدبيّة ونفسيّة.

تقوم فكرة التوازي (القللي 120) على تحديد التشابهات أو التناظرات أو التماثلات التي تتجاوز حالة اللاتلاقي بين النصوص في تباعدها الجغرافي، وهي بذلك تخفف من تصلّب المدرسة الفرنسية ذات النزعة التاريخيّة العلميّة في عقد المقارنات ضمن محددات التأثيرات الأكيدة والموثقة تاريخياً، وضمن سياقات المركزيّة الأوروبيّة في بعض الأحيان. لقد أقدم الجيل الجديد من أبناء المدرسة الفرنسيّة على خطوة حاسمة تخفف من هذا التصلّب بالاعتراف بالتوازي نهجاً يمكن أن يوسّع من مهام دراساتهم المقارنة، إذ عُنونت مجلة الأدب المقارن الفرنسية الصادرة عام 2001 بـ "توازيات"، كما أصدر بلوتارك فلوترخوس كتابه "حيوات متوازية"، وأصبح المرجعيّة الأساسيّة لدراسات التوازيّ الفرنسيّة، وضمنه ترجمات لبعض الشخصيات اليونانية والرومانية تجمع بينها قواسم مشتركة، ويحدد التوازي في ذلك التقارب الذي يقيمه المؤلف بين شخصيتين مهمتين، من أجل استخراج مزاياهما المتشابهة أو المختلفة (غربي 79) .

تمنح فكرة التوازي عدالة بين الثقافات والآداب تعزّز فرص الحوار والتكافؤ، كما أنّ "التوازي يراعي النديّة ويحفظ قيمة المحمول الثقافي للنص الأدبي (القللي 115)"، ويحفظ الخصوصيّة والهويّة، ولا يرفع من قدر ثقافة ويحطّ من أخرى، إنه حالة إئتلافية راقية تمدّ جسور التواصل بين النصوص وتعين على نقل الخبرات ويساعد كما تقول مكارم الغمري (الغمري 17) على التعرف على السمات العامة في الظواهر الأدبية بغض النظر عن اتصال هذه الظواهر ببعضها فتكشف الخصائص القومية والتاريخية للظواهر الأدبية، وهذا يؤكد غياب العليّة بين النصوص غيابا يجعل النصص بمرجعياته الظنية على صعيد واحد. يقول خليل الشيخ في تأكيد قيمة دراسات التوازي "إن اهتمامها تجلّى في اكتشاف المؤتلف والمختلف في التقاليد الأدبيّة القوميّة وإذا ما درس المرء التوازيات في ضوء هذا المنظور فلن يأخذ احتمالية وجود الصلات المباشرة بعين الاعتبار (الشيخ 178)". وبما أنّ التوازي ينطلق من فرضيات وجود ملمح مشترك أو أكثر بين عملين يسوّغ إجراء المقارنة بينهما.

أولاً: التوازي بوصفه إجراءً

يصبّ التوازي، وبخاصة الثقافي منه في مفهوم الأفكار الأدبيّة بوصفها عملاً إنسانياً يملكه من يقرؤه، ومن يعبّر عنه هذا العمل أو ذاك. وهو تواز يبتعد عن مفهوم النمذجة الإثنوثقافية، ويقترب من توفير أداة تنظم ظاهرة انتشار الأفكار عبر تقنية حرّة تفرضها النصوص، ولا تفرضها عوامل الطغيان الثقافي، لأنّ الفكرة الأوروبية تمثل وعاءً لدلالات إنسانية وإن كانت تخصّ مجتمعات بعينها (القللي 126). وهو بذلك يحتّم علينا التعمّق في هذه الأفكار، ومتى تكوّنت، وما دلالتها الأدبيّة والإنسانيّة.

إن التوازي في بعده الثقافي "يهتم بدراسة نزعة إنسانية فكرية تتجاوز بها عتبات بل عراقيل سطرت أدبيات المقارنات الأدبية دهراً، ويساعد ذلك على الغوص في الأعماق الإنسانية من عقل وانفعال وإحساس وذوق بين بيئتين ثقافيتين (القللي 126)" من خلال الاهتمام بـشخصية المحتال في عملين ينتميان لقوميتين مختلفتين هما "أخبار أشعب ونوادره" في الأدب العربي القديم، ورواية "شيطان في الجنة" للأمريكي هنري ميللر، فشخصية المحتال المتواكل الطمّاع ماثلة في العملين وشخصية المُمول والراعي الذي ضجر من هذا المحتال موجودة أيضاً. وهذان العملان يحيلان على مجتمعين مختلفين وزمنين مختلفين، وهذا يستدعي رصد وعي الأفراد والجماعات التي يعرضها فضاء أشعب، وميللر.

و"يتميز البحث في عوامل التوازي بين العملين في البحث عن التماثلات الكائنة على أساس العلل الإنسانية المشتركة التي تعدّ أداة في تكوين أفكار النص من تقاطعات تتراءى مصادفة أمام القراءة الفاحصة ترسم حدودها أحاسيس إنسانية دون قهر النصّ بطريقة تؤول ما ليس فيه (علوش 127)". إن إخضاع هذين العملين للدراسة المقارنة لايتغيا رصد المشترك فقط، بل إحداث حالة من التقارب الثقافي والمعرفي بينهما، فالنص بنية ثقافية ومعرفية ذات خصوصية قابلة للتلاحم مع غيرها.

تتخذ الدراسة فكرة أدب الاحتيال مرتكزاً في المقارنة بين عملين أدبيين ينتميان إلى قوميتين مختلفتين وأدب الاحتيال أو أدب الصعلكة أو اللصوصيّة أو ما يُسمّيه الإسبان بأدب البيكارسك (Picaresque) هو أدب الشطّار أو أدب التشرّد الذي يرصد "حياة البيكارو أو البطل الذي يعيش حياة مليئة بالاستهزاء بالقيم المجتمعية السائدة، واستعمال أساليب الشيطنة والمغامرة (جاب الله 147)"، ينتمي العمل الأول إلى فن الخبر في الأدب العربي القديم متمثلاً في أخبار أشعب ونوادره، أما العمل الثاني فينتمي إلى فن الرواية في الأدب الأمريكي الحديث متمثلا في رواية "شيطان في الجنة".

ثانياً: المنحى التطبيقي

تهدف هذه الدراسة إلى التعامل مع تجربة الاحتيال والطمع والاستغلال كما تتجلى في العملين المذكورين وهما عملان يشكلان جوهراً في عملية استبطان الاحتيال بسبب الاغتراب. إن اختيار حالة الطمع والاحتيال مركزاً للمقارنة بيهما بسبب ارتباطهما بالتشكيل الفنيّ للعملين، والعملان يكشفان طبيعة العلاقة بين الذات والمجتمع. والتوقف عند هاتين التجربتين كفيل بإثارة جملة من الأسئلة المتعلقة بالطابع النفسيّ والاجتماعيّ والحضاريّ.

تكوين الأديب ونصّه

يرتبط العمل الأول بأخبار ونوادر متفرقة حيكت عن أشعب بن جبير (الأصفهاني 101/19) واسمه شعيب وكنيته أبوالعلاء، وأمّه مولاة أسماء بنت أبي بكر واسمها حُميدة، نشأ أشعب في المدينة المنورة في دور آل أبي طالب، ربّته وكفلته عائشة بنت عثمان بن عفان. ويُقال أنه ولد في السنة التاسعة من الهجرة (630 م)، وكان أبوه من مماليك عثمان بن عفان، وقد عمّر أشعب حتى أيام خلافة المهدي (744 م). وقد جمعت أخباره في كتاب الأغاني للأصفهاني وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، وفوات الوفيات لابن شاكر، وفي تهذيب ابن عساكر، وميزان الاعتدال للذهبي، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وكتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي، وكتاب أخبار الظرفاء لابن الجوزي، وكتاب ثمار القلوب للثعالبي، وكتاب التذكرة الحمدونية لابن حمدون، وورد نزر من أخباره في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وقد أفرد له توفيق الحكيم مصنفاً كاملا عنوانه "أشعب ملك الطفيليين" عام 1938، جمع فيه أخباره وأعاد صياغتها بالزيادة والتحليل والوصف. نال أشعب شهرة واسعة وأثيرت حوله الكثير من الطرف غير الموثقة والتي جذبت الدراسين إليها لقيمتها الفنية التي تتجاوز أي قيمة توثيقية.

أما الأديب الثاني صاحب رواية "شيطان في الجنة" فهو الروائي والرسام الأمريكي هنري ميللر الذي ولد في نيويورك وزار أوروبا سنة 1928، واستقر في باريس علم 1930. وروايته فيها جانب سيري لا يمكن إخفاؤه حتى أنه ذكر اسمه صراحة بوصفه أحد أبطال الرواية. فاعتمدت على كمّ من مشاهداته وتجاربه ممزوجة بالنقد الاجتماعي والعمق الفلسفي والصوفية. وهذا

من جانب يقربها من أخبار أشعب في الإحالة المباشرة على الواقع في كثير من الأحيان. من رواياته الشهيرة مدار الجدي ومدار السرطان.

النص الأولي: وينتمي إلى فن الخبر أو النادرة أو الطرفة والخبر "وحدة سرديّة مستقلة بذاتها تحسّم فعلاً أو حادثاً ما (دوجلاس 20)" ويعرفه الأخضر السوامي بأنه "معطى اجتماعي إنساني إذ لا بد من وجود طرف آخر يبلغ له (القاضي 110)"، وقد تشكلت أخبار أشعب تشكلاً متشعباً ورويت بأسانيد مختلفة ووثقت في مراجع عديدة ذُكرت آنفاً، إلا أن ما يجمع بين هذه الأخبار هو تحرّيها للنادرة والطرفة فيما أقدم عليه أشعب، في تواكله على الناس وطلب الأعطيات والطعام منهم والاحتيال في سبيل ذلك احتيالا قد لا يحفظ كرامته ولا يراعي إنسانيته، ناضح بالاغتراب عن المجتمع، محددا علاقته بهذا المجتمع وأفراده تحديداً نفعياً مباشراً، يفقد فيه الإنسان قيمته ويعري ذاته ويعلي من شأن التشرد والاحتيال في سبيل تأمين لقمة العيش، فيصبح الطعام غاية لا وسيلة لمواصلة الحياة.

النص الثاني: تجمع رواية "شيطان في الجنة" بين شخصيتين متناقضتين في سياق قدري واحد، شخصية من يأخذ دون أن يبذل، وشخصية من يبذل دون أن يُقدّر بذله. فالأولى وتمثلها شخصية "كونراد تيريكان" عالة على الثانية وتمثلها "شخصية هنري ميللر"، فيأخذ "تيريكان" بلا أدنى شعور بالحرج أو المسؤولية مع شيء من النكران وكأنه صاحب حق ولا يتردد في أن يطلب حتى ما هو رفاهيّ أو فائض وكأنه صاحب ميراث، ولظروف إنسانية وتقدير أدبيّ عالٍ لشخصية تيريكان المثقفة ذات المنطق الفني والأدبي العالي ومراعاة لظروفه الصعبة في باريس يقرر ميللر أن يضع حدّاً لويلات تيريكان فيقرر أن يستدعيه إلى أمريكا ليعيش مع في البيت نفسه رفقة عائلته الصغيرة، ويأخذ على عاتقه سداد ديون تيريكان التي خلفها وراءه في باريس، فيحتضنه ويقدم له المأوى والطعام وما يحتاجه للكتابة والرسم، إلا أن تيريكان لا يقابل هذا الفعل الحسن بالجميل والعرفان رغم تسببه بكثير من الديوان على مضيفه، بل يتصرف وكأنه صاحب حق، فتتشكل قناعة عند ميللر بأن تيريكان كان وبالاً عليه، ولا بد من التخلص منه بإعادته إلى باريس، وتبدأ خطوة الإعادة بنقله إلى مستشفى المدينة ليتعالج من أمراضه الجلدية فيستقر في المدينة على نفقة ميللر، وهنا تبدأ لغة خطاب جديدة أكثر حدة بين تيريكان وميللر، فتيريكان رغم أنه يعيش بأموال ميللر لكنه لا يتردد بطلب المزيد دون أن يفكر بالانخراط في عمل متاسب. وهنا يقطع ميللر علاقته بتيريكان فيبادره الثاني بأن يشكوه إلى السفارة السويسرية كونه أحد مواطنيها، وتبوء جميع محاولات ميللر في تأمين رحلة جوية أو بحرية لتيريكان حتى يعود إلى فرنسا بالفشل، ويضع تيريكان شرطا وقحا للموافقة على السفر مفاده أن يضع ميللر في حسابه ألف دولار فلا يعود فقيرا إلى فرنسا حتى لا يقال عنه ذهب فقيرا وعاد فقيرا. أما الشخصية الثانية فشخصية المعطاء الذي لا يتردد في تقديم أشكال متعددة من الرعاية والمساعدة للشخصية الأولى رغم معرفتها التامة بأنها وقعت ضحية استغلال بارد، فكانت الرواية بعنوانها دالة على الشخصية الأولى بلفظة الشيطان، ودالة على الثانية بلفظة الجنة.

قراءة حرّة في النصّين

يصدر النصّان رغم اختلافهما الشكليّ الإجناسيّ عن حالة اغترابية خاصة تدفع بطلي العمل إلى ممارسة فعل انتقامي من المجتمع برفض العمل والارتكان لعامل الأخذ والتكسّب بالإخجال والإقناع والابتذال. والاغتراب (Alienation) ظاهرة نفسيّة اجتماعيّة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمتغيرات الحياة وتقلبات النفس البشرية، وقدرة هذه النفس على استيعاب هذه المتغيرات والتصالح معها، ويتلخّص الاغتراب فيما: "يعانيه الفرد من خبرة الانفصال عن وجوده الإنسانيّ وعن مجتمعه وعن الأفعال التي تصدر عنه، فيفقد سيطرته عليها وتصبح متحكمة فيه، فلا يشعر بأنه مركز لعالمه ومتحكّم في تصرفاته (سلامي 19)" الانفصال وفقدان السيطرة علامتان بارزتان في مفهوم الاغتراب. والاغتراب لدى جان جاك روسو (روسو 58) يكون قسريّاً أو طوعياً، وهذا الأخير يتشكل رهناً لطبيعة انخراط الفرد في منظومة العقد الاجتماعيّ وفقدانه لبعض مقوّمات هذا العقد، فيسعى إلى تعويض هذا الفقد بطرق شتى، لمجابهة اليأس وفقدان معنى وجوده ومحاولة استعادة الاتزان، في ظل عالم يحاصره بمظاهر لا مألوفة تعزّز لديه قيم الانفصال. يُورد الجاحظ عن أشعب نصّاً اغترابياً بامتياز يقول فيه: "وقال رجل لأشعب ما شكرتَ معروفي عندك! قال: لأنّ معروفك جاء من عند غير محتسب فوقع إلى غير شاكر (الجاحظ 334/2)" والنكران من أعلى مراتب الاغتراب عن الفعل، وهو ردّ فعل له امتداداته الخارجة عن حدود الخبر الوارد. ورغم أن النصّين ينتميان إلى جنسين مختلفين فلا بد من التركيز على المحتوى أكثر من السمات الشكليّة لهما مع التقدير الكبير لأهمية الشكل في تقديم القراءة اللازمة، إذ لا تتغيا الدراسة التعمّق في الخصائص الأدبيّة الشكليّة للنصوص بقدر ما تسعى إلى وضع العملين أمام ميزان من التكافؤ والتوازن ينظمه قانون التوازي.

سمات التشابه

يقدّم العملان نموذجاً بشرياً مهمّشاً يعيش حالة من الطمع والتواكل على الآخرين من جهة، والاعتداد بالذات والتمكّن اللفظي الإقناعي من جهة أخرى، وما يحكم هاتين الحالتين من التواكل هو نسق الاغتراب الذي يسكن دخيلة كل من الشخصيتين الرئيسيتين؛ أشعب وتيريكان ويوجهه سلوكهما. مع ضرورة مراعاة الخصوصية الثقافية للمجتمعين اللذين أنتجا هاتين الشخصيتين: الغربي الرأسمالي، العربي المسلم. ومراعاة جنسي العمل الذي تنتمي إليه كل شخصية، فأشعب نتعرف عليه من خلال فن الخبر، وتيركان من خلال فن الرواية.

ثنائية المحتال (المُعال) والمعطاء (المُعيل)

شخصية أشعب: تجيد الطرفة والشعر والمحاججة والإقناع، وهو صبور في ملاحقة ضحاياه من المعطائين والمضيافين، تجار أو ولاة أو خلفاء أو بسطاء وجوارٍ وأحياناً بخلاءَ ينافسونه على حب الطعام والمال. ورغم اغترابه عن مجتمعه إلا أنه يتصنّع الودّ ولا يتورع عن الإقدام على أيّ فعل مشروع أو مُحرّم للإيقاع بضحيته والاستفادة التامة من ذلك، وهو شخص متسامح يحرص على ألا يغضب وإن كان يستفز خصومه ويأخذ حاجته منهم بالحيلة أو المحاججة والمُلح والشعر أو التهديد بالتجني عليهم. ويقابل شخصية المُحتال شخصية المعطاء المُعيل، والمعطاء نوعان: من يعطي وهو صاحب سلطة ونفوذ كالولاة والخلفاء وذوي الشأن، ومن يعطي رغماً عنه واقعا في شرك الحيلة أو الحجة الواهمة أو التهديد الشفهيّ المقصود. وبذلك ينقسم أهل العطاء بين راضٍ بما أسداه لأشعب وساخط على ما نيل منه عنوة لأشعب، وقد تعدّد المعطائون في أخبار أشعب بتعدّد أخباره. فهو ثابت في أخباره وباذلوه متعددون.

شخصية تيريكان: تجيد اللغة العالية ذات الخلفية الفلسفيّة والدراية بعلم التنجيم والقدرة على التأمّل والتمكّن من المنطق، كان كونراد تيريكان (ميللر 7–9) كئيباً، إرشاديّ النزعة، قاطعاً في أفكاره، مركّزاً على نفسه وكيانه، مُشبع بنوع من القدريّة، مؤمن بالقوى الخفيّة، له مظهر ساحر، ثقيل وبطيء. رأسه المربعة ووجنتيه العاليتين وبرودة طبعه ولا أباليته. رجل تشنجات ونزوات ذو إرادة خاملة، جعله اعتياده نمطاً ثابتاً من الحياة ذا رتابة ناسك أو متقشف. ينتمي سلوكه لرجل جرّب الألوان كلها ثم انقاد إلى مصيره الأخير. كان يمارس حياة التسكّع صاحب وجوه متعددة. يقول ميللر: "مع أنني أحسست غريزياً بأنه كان بشكل أساسيّ مخادعاً وفي الحقيقة فإنّ هذه الخديعة التي لا توصف هي أول شيء اكتشفته لديه دون أن أمتلك ما يؤيد مشاعري (ميللر 8-9)"، إضافة إلى امتلاكه عبقرية المناقشة والذائقة اللغوية العالية. ومن سماته عشقه للدقة والتدرجات قبل كل شيء، وكان "يلعب باللغة كما يلعب موسيقي على آلته (ميللر 9)"، يحب أن يُصغى إليه وهو يروي مُلحاً عن شخصيات مشهورة.

أما شخصية المعطاء (الضحيّة) في رواية "شيطان في الجنة" فواحدة لا تتعدّد، إنه كاتب الرواية وبطلها "هنري ميللر"، أُعجب في مرحلة من مراحل تعرّفه على كونراد بلغته وفنه وقدرته على تشخيص الحياة من حوله. وميللر يتخذ في الرواية دور المثقف والكاتب، وصاحب مروءة في إنجاد صديق عالي الثقافة والمعرفة تعرّض لغدر الزمان وتقلباته، وقد أنجد تيريكان مرتين؛ مرة وهو بعيد عنه في فرنسا، إذ كان يرسل له ما يلبي حاجاته الأولية ومسكنه. ومرة عندما أخطأ في استدعاء كونراد المحتال ليعيش معه في بيته في أمريكا ويقاسمه المسكن والمأكل. مما عزّز ممن فكرة الاحتيال في العمل وراوح بين صنوفه.

وتشترك الشخصيتان المحتالتان "أشعب بن جبير" و "كونراد تيريكان" في جملة من الصفات الدالة على اغترابهما:

1- امتلاكهما القدرة على الحوار واختيار الألفاظ والاستجداء الأدبيّ والإلحاح في الطلب

رغم أن تيريكان كان ثرياً في ماضيه إلا أنه بارع ونوعيّ في استجدائه، الذي كان يوثّقه في رسائل منمقة باذخة الهيئة، إذ كان يرفض أن يكتبها إلا على ورق جميل وبلغة كتابة أنيقة معبّرة رغم أنه مُعدم ولا يمتلك ثمن هذه الورق، يقول الراوي: "بعد وقت قصير من ذلك صار تغيّر الرسائل مثيراً، ففي كل رسالة جديدة كانت الحالة تبدو وقد تفاقمت سوءاً. ومن المؤكد يقيناً أن المبالغ الصغيرة التي كنا نرفده بها لم تكن تسمح له في بلد مثل سويسرا أن يذهب بالخير بعيدا. صاحبة العقار كانت تهدّده دون توقف بالرمي خارج البناية. صحته صارت تسوء يوما بعد يوم. غرفته لم تكن محتملة. لم يكن يأكل ما فيه الكفاية ... كانت الرسائل تواظب بأن تكون أكثر جمالاً، مكتوبة على ورق أنيق ومُرسلة بالبريد الجوي، مُتسوّلة مُتضرعة بنبرة أكثر فأكثر باساً (ميللر 26)". في هذه المرحلة كان الاغتراب يدفع تيركان إلى الاستعطاف لعدم امتلاكه أوراقاً مهمة بيده يراهن عليها.

وبعد أن حقق تيركان مراده بالعيش في أمريكا رفقة هنري ميللر، وأصبح حملاً ثقيلاً عليه وتكشّفت حيله لميللر، حاول هذا الأخير إعادته إى فرنسا، فعاد تيركان لأسلوب الرسائل في تحقيق مآربه، يقول ميللر: "في هذا الوقت وصلت رسالة أخرى من تيركان. رسالة مشحونة بالاتهامات المضادة. لماذا أحمل ضغينة ضده وأدفعه للسفر؟ ماذا عمل لكي يستحق هذا التعامل؟ هل كان ذنبه إذا سقط مريضاً في منزلي؟ وقد ذيل الرسالة بملاحظة يذكرني فيها ساخراً بأنني ما زلت على الدوام مسؤولاً عن إعاشته وأنني قد وقعت أوراقاً بهذا الصدد وأن هذه الأوراق بحوزته حتى الآن، بل إنه كان يلحّ إلى أنّه سينبه السلطات الأمريكية إلى الفضائح التي أثارتها كتبي في فرنسا (كما لو أنها غير معروفة) إذا لم أتراجع عن موقفي، لا بل إنه قادر على إعلامهم بأمور أكثر سوءاً (104-105)". وتيركان يستخدم سلاح اللغة تارة وسلاح التهديد تارة أخرى لتأكيد حجته وصواب وجهة نظره.

ولكي يتخلص ميللر من كابوس تيركان قرّر ألا يردّ على رسائله: "كان ينتابه خوف هائل. أن أقطع عنه المصروف؟ أتركه دون قرش؟ وحيداً في أرض غريبة؟ هو، هو الرجل المريض، الشائخ، الذي لا يملك حتى حق البحث عن وظيفة؟ كلا .. لن أفعل هذا! ليس ميللر الذي يعرفه منذ وقت طويل هو من يقوم بهذا؟ ميللر صاحب القلب الكبير المليء رحمة، الذي يعطي لشخص واحد ما يعطيه لكل الأشخاص– الحنون إزاء تيريكان، البائس، المحطم، الذي أقسم أن يحميه ما عاش!. نعم أجبت. أنه ذات الميللر، إنه مرهق، إنه مشمئز، ولا يريد أية علاقة معك. كنت أتعامل معه كحشرة تافهة، كمصاص دماء، كنصّاب" (106). وفي شاهد آخر، يظهر ميللر تغيّر قواعد اللعبة مع تيركان الذي وضع شروطاً للعودة إلى باريس: "سيقبل الرحلة ولكن بشرط أن أحوّل على حسابه في إحدى بنوك باريس مبلغاً يعادل الألف دولار، وسبب هذا الطلب سهل للغاية: لقد ترك أوروبا فقيراً، ولا يريد العودة إليها فقيراً، لقد كنت أنا من دعاه إلى القدوم إلى أمريكا واعداً إياه أن أهتمّ به، وهو أنا أيضاً من يرغب برؤيته عائداً إلى باريس بينما لا يرغب بذلك بمحض مشيئته، لقد قرّرت التخلّص منه (106)". وتيركان يمزج في اغترابه بين الأنفة والاستجداء والتذلّل في حواره العجيب مع ميللر.

أما أشعب المكدي المحتال فكان يظهر في بعض أخباره شخصاً ذا مكانة اجتماعية ودينية جيدة: "كان أشعب من القرّاء للقرآن، وكان قد نسك وغزا، وكان حسن الصوت بالقرآن، وربما صلّى بهم القيام (الأصفهاني 102/19)"، وفي شاهد آخر يرويه ابنه عُبيدة الذي جاء في يوم عبدالله بن عمر بن الخطاب طالباً أن يعطيه تمراً يملأ جيوب بعيره فرفض عبدالله بن عمر سائلاً عبيدة بن أشعب عن حجته فقال: لأني سائل، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أتاك سائل على فرس فلا تردّه). فقال: لو شئنا أن نقول لك: إنّه قال: لو أتاك على فرس، ولم يقل أتاك على ناضِح بعير لقلنا، ولكنّي أمسك عن ذلك لاستغنائي عنه؛ لأني قلت لأبي عمر بن الخطاب: إذا أتاني سائل على فرس يسألني أعطيته؟ فقال: إنّي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عمّا سألتني فقال لي: نعم إذا لم تُصب راجلاً ونحن أيّها الرّجل نُصيب رجّالة فعلام أعطيك وأنت على بعير؟ فقلت له: بحق أبيك الفاروق، وبحق الله عزّ وجلّ، وبحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلّم لما أوقرته لي تمراً. فقال لي عبدالله: أنا مُوقِره لك تمراً، وحق الله وحق رسوله لئن عاودت استحلافي لا أبررتُ لك قسمك، ولو أنك اقتصرت على استحلافي في حق أبي عليّ في تمرة أعطيكها لمّا أنفذت قسمك (الأصفهاني 118/19)". كانت المحاججة مطلباً مشتركا بين الشخصيتين يستعينان به لتحقيق غايتيهما، رغم أنهما كان يمتلكان في مضى جاهاً وحياة موسرة.

2- الحيلة والذكاء وسرعة البديهة

والحيلة هي أساس شخصيّة المحتال، وقد غلبت الحيلة على كثير من أخبار أشعب ومنها: "لقي أشعب سالمَ بن عبدالله فقال: يا أشعب، هل لك في هَريس قد أُعدّ لنا؟ قال: نعم، بأبي أنت وأميّ. قال: فصِر إليّ، فمضى إلى منزله، فقالت له امرأته: قد وجّه إليك عبدالله بن عمرو بن عثمان يدعوك. قال: ويحكِ، إنّ لسالم بن عبدالله هريسةً قد دعاني إليها، وعبدالله بن عمرو في يدي متى شئت، وسالم إنما دعوته للناس فلتة، وليس لي بدّ من المضي إليه. قالت: إذاً يغضب عبدالله، قال: آكل عنده، ثم أصير إلى عبد الله. فجاء إلى سالم يأكل أكل مُتعالل، فقال له: كُل يا أشعب وابعث ما فَضَل عنك إلى منزلك، قال: ذاك أردت بأبي أنت وأمي. فقال: يا غلام، احمل هذا إلى منزله، فحمله ومضى معه فجاء به امرأته فقالت له: ثكلتك أمّك، قد حلف عبدالله أن لا يُكلّمك شهراً؛ قال: دعيني وإياه، هاتي شيئاً من زعفران، فأعطته ودخل الحمّام يمسح على وجهه ويديه وجلس في الحمام حتى صفّره، ثم خرج متكئاً على عصا يُرعد، حتى أتى دار عبدالله بن عمرو. فلما رآه حاجبه قال: ويحك، بلغت بك العلّة ما أرى؟ ودخل وأعلم صاحبه فأذن له، فلمّا دخل عليه إذا سالم بن عبدالله عنده. فجعل يزيد في الرّعدة، ويقارب الخطو، فجلس وما يقدر أن يستقلّ، فقال عبدالله: ظلمناك يا أشعب في غضبنا عليك، فقال له سالم: مالك ويلك! ألم تكن عندي آنفاً وأكلت هريسة؟ فقل له: وأيّ أكل ترى بي؟ قال: ويلك! ألم أقل لك كيت وككيت وتقل لي كيت وكيت؟ قال له: شُبّه لك، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، والله إنّي لأظنّ الشيطان يتشبه بك. ويلك! أجادّ أنت؟ قال: عليّ وعليّ إن كنت خرجتُ منذ شهر. فقال له عبدالله: اعزُب ويحك

أتبهتهُ، لا أمّ لك! قال: ما قلت إلا حقّاً. قال: بحياتي اصدقني وأنت آمنٌ من غضبي. قال: لا وحياتك لقد صدق. ثم حدّثه بالقصة فضحك حتى استلقى على قفاه (الأصفهاني 119/19-120)". وأشعب فيما سبق يبادل الحيلة بالحيلة، ويتخذ باذليه موئلاً له لتحقيق مطمعه، وهم يتخذونه مجالاً للتسلية والإضحاك.

أما تيركان، فكان شديد الذكاء والفطنة، قال عنه هنري ميللر: "كان حادّ الذهن إلى حدّ ما، ولديه من الخبرة ما يمكنه من أن يميّز ويصنّف النمط الأكثر تبايناً من بين الجالسين إلى الطاولة (14)". وتيركان بارع في اختيار ضحاياه يأسرهم بمعرفته وبلاغته ثم يكون عالة عليهم.

3- الكسل والأخذ دون بذل

يتخلى أشعب وبريكان عن فكرة العمل وكسب الرزق إلى التشبث بالمعيل وانتظار عطاياه، وهذا أشعب يمتلك تفاؤلاً وطول أمل في تحقيق مراده: "وقف أشعب على امرأة تعمل طبق خُوصٍ فقال: لِتكبّريه فقالت: لِمَ ؟ أتريد أن تشتريه؟ قال: لا، ولكن عسى أن يشتريه إنسان فيُهدي إليّ فيه، فيكون كبيراً خير من أن يكون صغيراً (الأصفهاني 112/19)"، وفي سياق آخر يورد توفيق الحكيم عن أشعب، قوله: "فوقف أشعب مأخوذاً .. فسأله الكنديّ: تريد ماذا؟ فأجاب أشعب: أتريد أن أتغدى..؟! فحملق فيه الكنديّ قائلاً: ولم ذلك؟ وكيف طمعت في هذا؟ ومن أباح لك مالي؟ فقال أشعب: أولست قد دعوتني؟ فأجاب الكنديّ: ويلك! لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام. ماذا كان بيننا غير سلام وردّ سلام، أي كلام بكلام، ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال. وقول بأكل، فهذا ليس من الإنصاف (21-22)". والطعام في الروايتين هو بيت القصيد، يحصّل دون جهد ولا بذل وهذا ما يتركز في دخيلة المحتال.

أما تيركان فيشكو ميللر من تغوّله وتفريطه بما يهبه إياه من نقود، يقول ميللر: "علمت بعدئذ بأنه (يقصد تيركان) وجد فندقاً يلائمه ولكن بسعر مرتفع لم نكن قد اتفقنا عليه... النقود، كان يقول، صارت تتبخر في سرعة عجيبة، لأنه لا يستطيع التنقل إلا بتاكسي لأن انكليزيته جد أوليّة وتمنعه من المخاطرة متجولا بالباص أو بالترام. أعرته أذناً صاغية لكل هذه القضايا آملاً أن يتكيّف بسرعة وأن لا يبذر النقود بالنتيجة، ومع ذلك فإن حكاية التاكسي قد أثارت أعصابي. لقد كانت باريس في الحقيقة أكبر من سان فرنسيسكو وكنت أتدبر أمري لأجد الطريق وحدي وبالقروش القليلة التي كانت في جيبي كما بمعرفة أقل من معرفته بالإنكليزية. لكن الفرق بين الحالتين –وهو يؤدي إلى اختلاف أساسيّ– هو أنني لم أكن اعتمد على شخص آخر (101)". والاعتماد على شخص آخر لازمة من لوازم المحتال في انتقامه من المجتمع الذي اغترب عنه، وهذا ما دفع ميللر إلى التلويح بقطع العلاقة مع تيركان المحتال، وحتى يضع ميللر حدّاً لهذا الاستغلال: "رددت عليه للفور بأنه إذا لم يستقل الطائرة هذه المرة ولم يهرب من البلاد وإذا لم يتركني بسلام فسأقطع عنه المصروف. مضيفاً بأنني لا أهتمّ أبداً بما سيحدث له، ولو أراد القفز من أعلى جسور غولدن غيت فلن يجعلني هذا لا حاراً ولا بارداً (106)"، وميللر كاتب ومثقف وودود إلا أن استغلال تيركان له إلى أقصى حدّ جعله في مأزق أخلاقي في التخلّص منه.

4- وجود شخصية الباذل (الضحيّة) وابتزازه

لا تكتمل شخصية المحتال إلا بوجود شخصية الباذل المعطاء أو الضحية التي تتعرض للابتزاز، ومن مظاهر ذلك: "قال رجل لأشعب: إنّ سالم بن عبدالله قد مضى إلى بستان فلان ومعه طعام كثير، فبادرَ حتى لحقه فأغلق الغلام الباب دونه، فتسوّر عليه، فصاح به سالم: بناتي ويلك بناتي، فناداه أشعب: "لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد" فأمر بالطعام فأخرج إليه منه ما كفاه (الأصفهاني 122/19)". وفي رواية أخرى: "صلى أشعب يوماً إلى جانب مروان بن أبان بن عثمان، وكان مروان عظيم الخلق والعجيزة، فأفلتت منه ريحٌ عند نهوضه، لها صوت، فانصرف أشعب من الصلاة، فوهِم الناس أنّه هو الذي خرجت منه الريح، فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب فقال له: الدّية، فقال: دية ماذا؟ فقال: دية الضرطة التي تحمّلتها عنك، والله وإلا شهّرتك، فلم يدعه حتى أخذ منه شيئاً صالحاً (الأصفهاني 107/19)". ولا يتحقق ذلك إلا لجرأة وسرعة بديهته وأخذ الباذل على حين غرة.

أما تيركان فرغم كثرة الفرص التي وفّرها له ميللر فكان يأمل بالمزيد وأن يبقى تحت رعاية ميللر! وميللر ملّ الأمر وسئمه وشعر بالتورّط حيال ذلك: "بعد شهر كامل على هذا المنوال، فإن جهودي بالإنفاق عليه صارت ثقيلة عليّ جديّاً. كان لدي إحساس إنّ هذا لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية. وتوصلت إلى أن أكتب له أخيراً بأنه إذا فكّر بالرجوع إلى أوروبا فسأحاول أن أتدبر له تذكرة الرحلة، وبدلا من أن يتحمّس لذلك كتب لي بنبرة حدادية بأنه سيلجأ إلى هذا الحلّ في الحالات القصوى كما لو أنه يقدّم لي إكرامية على الاقتراح (102)". ومع حالة الاعتماد المزمن على الباذل تتغير لغته، يقول ميللر: "لكن وساخة

تيركان تشوّه الأمور حول هذه النقطة! إنه يطرح المسألة وكأنني عندما وعدته أن أعتني به فإنني مجبر على دفع مصاريف فندقه وباراته ومسارحه وتنقله بتاكسي وأخيرا بوضع ألف دولار في حسابه في باريس، فهو يرفض أن يعود فقيراً من جديد كما لو أنّ مثل هذا الأمر متوقف على رغبتك الطيبة فقط! (107)". وأصر هنري ميللر على موقفه الحازم هذا فأرسل له صديقه "ليليك" المرافق لتيريكان في سان فرانسيسكو ما شاهده من خبث تيريكان "ما كنت أتصوّر أن يوجد شخص أكثر حنقاً وخبثاً ومهارة منه .. خذ حذرك على أية حال! سيقوم بعمل من شأنه خلق المنغصات لك. أظن بأنه قد غدا مجنوناً حقاً (110)". وفي سياق آخر، يُقر الباذل بخطئه في تقديم المساعدة لتيركان الذي لا يستحق: "وعلى كل حال فأيّ درس! لن يدفعني أبداً كائن أن أحلّ مشاكل الآخرين نيابة عنهم. إنه لخطأ وأي خطأ أن نظن أننا نستطيع ببعض التضحيات التغلب على صعوباتهم! (84)". وقد قابل تيركان كل ذلك بتبلد وغياب للإحساس ولوم للباذل واتهامه بالتقصير تجاهه.

5- حضور الغرابة والطرافة

تتفوق طرافة أشعب على ظرافة تيركان الذي يُقدّم كآبته وصمته على أيّ حديث. وإن كان كل واحد يتخذ من إحدى الوسيلتين طريقاً لتحقيق غاياته. ومن شواهد ذلك: "لم ترَ الجارية مع صاحبها هذا حيلة، فقامت تهيّئ له الطعام. ولم تمضِ ساعة حتى فاز أشعب ببغيته الحقيقية ووضع أمامه الخوان. وكان هذا العاشق الولهان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكر وسدر وانبهر، وتربد وجهه، ولم يسمع ولم يبصر. فتناول القصعة وهي كجمجمة الثور فأخذ يحضنها، وما زال ينهشها طولا وعرضاً ورفعاً وخفضاً، لا يفصل تمرة قط عن تمرة ولا يرمي بنواة قطّ ولا ينزع قمعاً ولا ينفي عنه قشراً ولا يفتشه نخافة السوس والدود. فلما رأت صاحبته ما يعتريه وما يعتري الطعام منه، لم تزد على أن همست كالمخاطبة لنفسها: هذا والله هو العشق! (الحكيم 16)". وسضرب مثالا في الطرافة والغرابة في حب الطعام وعشقه. وفي سياق آخر عندما أمر والي مكة بحبس أشعب وصديقه بنان لممارستهما الفجور والغناء في مكة المكرمة وتجاوز قدسية المكان، لا يجد أشعب من وسيلة لينجو من العقاب إلا بإضحاك الوالي: "فجعل يقصّ عليه طريق النوادر والوالي في إطراقه وتقطيبه وعبوسه لا يعبر وجهه خيال ابتسامة. وسكت أشعب قانطاً (الحكيم 88)".

أما تيركان فكانت أولى وسائل إيقاعه بميللر استعطافه استعطافا قاد إلى أن يبذل ميللر مستطاعه في إنقاذ تيركان من الفاقة التي ألمت به في سويسرا: "قضيت الأسابيع القليلة اللاحقة بالاستدانة ... ولم أصل إلى تجاوز صعوبة وحيدة، كانت تتعلق بتنظيم إيجاره المتأخر. إلى أن أرسلت رسالة إلى صاحبة العقار ملتزماً بتصفية المبالغ المتأخرة بأسرع وقت ممكن معطياً كلمة شرف. وقبل بضعة لحظات من مغادرته كتب لي رسالة وديّة يطمئنني فيها بصدد موضوع المرأة صاحبة العقار حيث كل شيء كان يجري على الشعرة بينهما، وحيث كان من تعويض المتأخر، مضطراً لمضاجعتها دون كبير حماسة. شرح لي هذه النقطة بعبارات مزوّقة متحايلاً لدفعي أن أفهم بأنه كان يقوم بواجبه بالرغم من اشمئزازه (29)". وفي مثل ذلك يجمع تيركان بين المتناقضات الحيلة والاستجداء والأنفة والخسّة.

6- المغامرة والتشرد

تلازم سمة التشرد تيركان وأشعب، فحياتهما رهن لما يقدمه الآخرون طائعين أو مجبرين: "مكث أشعب في دار الرجل أياماً طويلة حتى ضجر وضجرت امرأته، فقالت المرأة لزوجها ذات ليلة: يبقى إلى متى؟. كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه؟. فقالت المرأة بعد تفكّر: أنا أجيئك بالخبر. فقال زوجها: كيف تستطيعين؟. فقالت: ألق بيني وبينك شراً ونتاحكم إليه وأجاذبه الحديث. ونهضا من ساعتهما فتشاجرا وتظاهرا بالغضب والخصومة، وانطلقت المرأة إلى أشعب تقول له: بالذي يبارك لك في ذهابك غداً أينا أظلم؟ فقال أشعب: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهراً، ما أعلم!. فأدركت المرأة وأدرك زوجها أن أشعب يطمع في طول المقام. (الحكيم 106-107)". تعدّ مسألة اقتناص الفرصة مسألة مشتركة بين أشعب وتيركان، ويبذلان من أجلها، إذ استطاع تيركان أن يُقنع ميللر أن يستقدمه من سويسرا إلى أمريكا، وأوقع ذلك ميللر في مأساة كبرى.

وميللر بوصفه باذلاً يقع في فخ العطف والسؤولية تجاه مثقف أحب لغته وطروحاته: "خطرت لي في النهاية فكرة عبقرية، مؤداها دعوة تيريكان للقدوم والعيش معنا ومقاسمتنا ما نملك واعتبار منزلنا منزلاً له حتى أواخر أيامه ... (احتفظت بالفكرة) لنفسي بضعة أيام قبل أن أطرحها على زوجتي ... لم يكن ينقص زوجتي الكرم، ولكنها كانت على دراية بأنّ تيريكان ليس من ... الذين يحيلون الحياة إلى بهجة دائمة. كان الأمر مثلما تدعو رجلا مصاباً بالكآبة للجثوم على صدرك بعض الشيء (27)". وهذا ما كان إلا أنّ الأمر خرج عن السيطرة تماماً، فسلوك الكرم لا يصمد كثيرا أمام سلوكيات الاغتراب والاحتيال. والسبب كامن في أخلاقيات ميللر الذي كان يتساءل: "ما جدوى المحاججة كونه صديقي الحميم أم صديقاً عابراً؟ عندما يغرق رجل تحت أبصارنا ألا نمدّ له يد العون؟ (28)".

7- حب المال

شاعت أخبار أشعب المكديّة شيوعا لافتا، فأشعب عاشق للمال الذي يجلب له الطعام، إذ "كان لأشعب خرق في بابه، فكان ينامُ ثم يُخرج يده من الخرق يطمعُ في أن يجيء إنسان يطرح في يده شيئاً من شدة الطمع. فبعث إليه بعضُ من كان يعبث به من مُجّان آل الزبير بعبدٍ له فسلح في يده، فلم يعد بعدها إلى أن يُخرج يده (الأصفهاني 122/19)". وفي سياق آخر "قال أشعب مرة للصبيان: هذا عمرو بن عثمان يقسّم مالاً، فمضوا، فلمّا أبطؤوا عنه اتبعهم؛ يحسب أن الأمر قد صار حقاً كما قال (الأصفهاني 112/19)".

أما تيركان فيستطيع أن يستنزف أصدقاءه بحذق: "غير أنني فهمت في تلك اللحظة الأسباب التي امتلكتها زوجتي وفهمت بأنني قد ارتكبت خطأ تذكارياً، وتصوّرتُ من أي مصاص دماء كانت أناييس تريد التخلّص. كما شاهدت الولد المدلل، الرجل الذي لم يكن أبداً قادراً طيلة حياته على القيام بأبسط الأعمال الشريفة، المعوز، الفخور للغاية بالاستجداء بشكل مفضوح، القادر على استنزاف الأصدقاء. لقد فهمت كل ذلك بجلاء آنئذ وقدرت بأنه سينتهي بسوء العاقبة (ميللر 32)". وأناييس امرأة مثقفة وكاتبة مثلّت الضحية التي سبقت ميللر، فتخلصت من تيركان وحيله بأن عرّفته على ميللر. لقد شكل المال كلمة السر في اغتراب أشعب وتيركان وحصر علاقتهما مع المجتمع بالحصول على المال دون كدّ أو عمل.

8- تعرية النفس وضياع القيمة

يضطر المحتال أحياناً للتضحية بالقيمة المعنوية والخلقية من أجل الوصول إلى غاياته: "جلس أشعب على رأس الطريق وحيداً غريباً في هذا البلد لا يعرف أحداً فيه، ولا مال معه ولا زاد، وقد أضرّ به الجوع، فجعل يتنهد ويقول لنفسه: لعن الله المال الحرام! كلما جمعناه، ذهب عنّا سريعاً، وعدنا شراً مما كان (الحكيم 126)". وهذا إقرار من أشعب بعدم جدوى صنائعه.

أما تيركان فكان حريصاً على إبراز ضعفه وقلة حيلته بالرسائل التي كان بستدرج بها عطف ميللر: "كان يعيش في غرفة دون تدفئة في بانسيون بائس، لا يملك حتى ما يمكنه من شراء سجائره، منهكا من الجوع كالعادة. باشرنا فوراً بإرسال الإمدادات إليه والأشياء الواقعة بمرتبة الضرورة القصوى التي بدا بحاجة إليها، وكذلك بإرسال النقود التي استطعنا تحويشها (ميللر 26)". يظهر تيركان في هذا المقطع عارياً تماماً من أي قدرة، وهي استراتيجية يلجأ إليها المحتال لتغيير واقعه مؤقتاً قبل العودة إلى كبريائه الوهمي (26).

9- ضياع القيمة

عندما تتأزم الشخصية بداعي الاغتراب فإنه لا تجد مناصاً من فقدان القيمة المعنوية أو الخلقية أو الدينية حيال ذلك، ومرد الأمر هو اليأس ولا شك: "مرت أيام ضاقت فيها الدنيا بأشعب حتى نسي شكل وطعم اللحم. فخرج من الجوع يهيم في الأسواق ... فقال أحدهم: إنّ الدجّال رجل يخرج في سنة قحط معه جرداق أصبهاني وملح دراني وانجذان سرخسي. فتلمظ أشعب وصاح فيهم: هذا، عافاكم الله، رجل يستحق أن يستمع له ويطاع (الحكيم 48)".

وهذا الضياع يتحقق في شخصية تيريكان، عندما يسيء قصداً لمعيله ميللر: "لكن وساخة تيريكان تشوه الأمور حول هذه النقطة! إنه يطرح المسألة وكأنني عنده وعدته أن أعتني به فإني مجبر على دفع مصاريف فندقه وباراته ومسارحه وتنقله بتاكسي. وأخيرا بوضع ألف دولار في حسابه في باريس فهو يرفض أن يعود فقيراً من جديد! كما لو أنّ مثل هذا الأمر متوقف على رغبتك الطيبة فقط (107)".

10- العيش للذات ومن أجلها ومن خلال ما تمليه من قيم تتعارض مع المجتمع

تتعمق الصفات المشتركة وتتركز هذه السمة أكثر فأكثر، وكل ما سبق يصبّ في صالح الذات والحرص عليها. من ذلك أن أشعب رفض طلب صديقة له قالت له: "هب لي خاتمك أذكرك به، قال: اذكري أني منعتك إياه، فهو أحبّ إليّ (الأصفهاني 112/19)". فرضي أشعب بالمثلبة على الصفة الطيبة توفيراً للمال، يجعل إنعاش الذات بالمال والمحافظة عليه مقدم على أي شيء آخر. وفي سياق ثان يقحم أشعب نفسه في وليمة لأناس لا يعرفهم ولم يدعوه إليها "**الشاهد الثاني**: " فحشا فمه وازدرد وهو يقول: الحياة بعدكم حرام. وجعل يجول في القصعة كما يجول الفارس في الميدان. فلما رأوه قد أغار على أكلهم، وكاد يحرمهم زادهم في غير حشمة ولا حياء، نظر بعضهم إلى بعض ثم التفتوا إليه قائلين: أيه الرجل! هل عرفت منا أحداً؟ فأشار بإصبعه إلى الطعام وقال: عرفت هذا. فسكتوا عنه، وقد استظرفوه، وتبادلوا الحديث (الحكيم 54-55)". تغادر قصص أشعب قيم الحياة والأخلاق إلى قيم تمجيد الذات وخدمتها.

أما تيركان فحريص على رفاه نفسه ولو كان ذلك على حساب غيره، فرغم ظروفه وظروف إعالته من قبل ميللر إلا أن طلباته رغم غرابتها لا تنتهي: "مشكلة واحدة بقيت دون حل: مشكلة أوراق الكتابة. كان ينبغي كما كان يلحّ أن يكتب على أوراق من حجم معين، وأراني عيّنة منها كان قد جلبها معه من أوروبا لكي آخذها معي وأرى فيما إذا كان يوجد شبيه لها. وكان ذلك مستحيلا لسوء الحظ. كان قياسها غريباً ولا يوجد عليه أي طلب بدون شك. كان يجد الأمر غير قابل للتصديق ولم يكن ليقنعه. أمريكا التي تصنع كل شيء بهذه الوفرة كيف يمكنه أن يتصور عدم إمكانية العثور فيها على ورق رسائل اعتيادي؟ اغتاظ، وأمسك أخيرا بالعينة بيده وشرع يصرخ ضاربا بأصابعه على الطاولة: في كل مكان بأوروبا يوجد مثل هذا، بالضبط من هذا القياس، وفي أمريكا حيث يوجد كل شيء لا نستطيع أن نجده؛ هذا مقرف! وبصراحة فإن هذه الأوراق الحقيرة بدأت تزعجني. أي نوع من الكتابة إذن يتطلب نوعاً من الورق بهذا القياس تماما؟ لقد تدبرت له بودرة يردلي وكلواز أزرق، ما الكولونيا، الحجارة المسحوقة المعطرة بشكل خفيف لتنظيف أسنانه وها هو الآن راغب بتكسير قدمي من أجل أوراقه الحقيرة (34)".

مظاهر الاغتراب

تجسّد الشخصيتان حالة من حالات الاغتراب النفسي والاجتماعي عن العالم الذي ينتميان إليه وقد أسهمت الحاجة لدى كل منهما إلى هذا الاغتراب والحقد على ما يحيط بهما من مجتمع في نظرهما غير عادل ولا يحسن تقديرهما. فالمحتال مغترب بطبعه ومصدر ذلك "إحساسه بالانتماء إلى عالم يملؤه ما هو غير مألوف بالنسبة له، مما يؤثر فيه كعنصر اجتماعي (مروفل 124)"، وهذا ما يدفعهم بتعبير حليم بركات (بركات 35) إلى الانحراف عن الأسلوب المألوف لحياة الإنسان. ويتأتى ذلك من التفكك، وقد ربط إميل دوركهايم (بركات 67) بين الاغتراب وتفكك المعايير القيم والمعايير الاجتماعية والثقافية وفقدانها السيطرة على السلوك الإنساني وضبطه والعايير التي تتدهور نتيجة لذلك. وفي الاغتراب النفسي (Self-Estrangement) ينفصل الشخص عن ذاته، وفي الاجتماعي ينفصل عن مجتمعه. وقد جمع أشعب وتيركان بين الاغترابين في أفعالهما ومن أبرز مظاهر ذلك:

1- الانفصال

يعد الانفصال مظهراً أساسياً من مظاهر الاغتراب وهو حالة تنتج عن "الانفصال الحتمي المعرفي لكيانات أو عناصر معينة في واقع الحياة (النوري 14)"، وعليه تتشكل حالة من الاحتكاك والتوتر بين الأجزاء المنفصلة: "جلس أشعب على رأس الطريق وحيداً غريباً في هذا البلد لا يعرف أحداً فيه، ولا مال معه ولا زاد، وقد أضرّ به الجوع، فجعل يتنهد ويقول لنفسه: لعن الله المال الحرام! كلما جمعناه، ذهب عنّا سريعاً، وعدنا شراً مما كان (الحكيم 126)". وفي سياق آخر: "قال رجل لأشعب ما شكرتَ معروفي عندك! قال: لأنّ معروفك جاء من عند غير محتسب فوقع إلى غير شاكر (الجاحظ 334/2)". فردود أشعب منفصلة عن المجتمع معترضة عليه وعلى أعرافه.

أما تيركان فكان منفصلا عن مجتمعه السويسري لا يجد من يقيل أوده: "تكان يعيش في فندق متواضع للغاية. فندق موديال في شارع نوتردام دولوريت. قبل ذلك كان قد اجتاز أزمة كبيرة: فقدان ثروته. هكذا كان يعيش فقيراً تماما وليس لديه أقل التدابير، أو أقل الاهتمام للمجريات العملية، متدبراً أمره من يوم لآخر. كفطور كان يأخذ قهوة وفطائر إلى غرفته، وكان يرضى بنفس الوجبة غاليا عند العشاء دون ايما وجبة غداء بينهما (ميللر 11)". وكان همّ معيله ميللر: "إيجاد مخرج ما لكي يأكل هذا المسكين بطريقة أكثر انتظاماً ووفرة. ولعدم قدرتي على ضمان الوسائل لتدبير وجبات ثلاث له فقد أمكنني أن أرتب الأمر لكي يأكل وجبة دسمة. كنت أدعوه في بعض الأحيان إلى الغداء أو العشاء في الخارج، ولكنني كنت أدعوه في الأغلب إلى مادبة في بيتي (ميللر 11)".

2- عدم القدرة أو اللاستطاعة

ويرتبط هذا المظهر بالعجز، وهو أمر وثيق الصلة بالاغتراب "وهذا النمط من التعبير عن حقيقة الاغتراب يمكن تصوره من خلال توقع الاحتمالات الجارية في أذهان الأفراد فيما يتصل بالحصول على نتائج محددة يسعون إليها (النوري 15)"، وعدم القدرة أو إيهام الآخرين به ملازمة لأشعب وتيركان، وأشعب على سبيل المثال رافق قافلة استظرفته، وكان رفيقه يتعهده في كل حاجاته: "والرجل في كل يوم يحضر الطعام ويجهزه وأشعب لا يصنع شيئاً. فقال له الرجل ذات يوم: قم اليوم فاطبخ. فقال أشعب: لا أحسن ذلك. فطبخ الرجل، ثم قال لأشعب: قم فأثرد. فقال أشعب: والله كسلان. فثرد الرجل، ثم قال: قم فاغرف. فقال أشعب: أخشى أن ينقلب على ثيابي. فغرف الرجل ثم قال لأشعب قم الآن فكل. فنهض أشعب قائلا: قد والله استحيت من كثرة خلافي عليك! وتقدم إلى الأكل فقام فيه مقام رجلين (الحكيم 56)".

أما تيركان فلديه من السمات ما يجعله غير قادر على أن يفسر مجريات حياته: "كنت أبقى صامتا عاجزا. كان التمزق الذي يقاسيه من صنف خاص، يتعلق بإنسان غير قادر أن يفهم لم كان هو، هو بالخصوص من بين جميع الآخرين من يجد نفسه منتخباً للعقاب على هذا النحو (ميللر 12)".

3- اللامعيارية

وهي حالة انعدام المبادئ لدى الشخص في مجتمع يفتقر إلى المعايير الاجتماعية المطلوبة لضبط سلوك الأفراد، فيسعون إلى تكيّف جديد في ظروف تخلو من تأثير المعايير الاجتماعية (النوري 16). ومن ذلك: "كانت أولى إشارات تيريكان قد أخذت شكل رسالة موجهة إليّ من مكتب القنصلية السويسرية في سان فرانسيسكو، رسالة رسمية مؤدبة تعلمني أن تيريكان قد قام بزيارة القنصلية في حالة يأس خالصة إلى القول إن القنصلية تتمنى معرفة وجهة نظري في الموضوع. قمت بكتابة رد مطوّل إلى حدّ ما، مقترحاً إرسال نسخ من رسائله الموجهة إليّ، مكررا ما كنت قد قلته له بأن كل شيء قد انتهى معه. ثم وصلت رسالة أخرى من القنصلية تذكرني بأنني كفيله الرسمي مهما حدث، مما حفزني لأن أبعث إليها بالرسائل التي كنت أتحدث عنها، أرسلت نسخاً مصورة عنها، ورحت أنتظر (ميللر 111)". فتريكان لم يتردد في محاولة إيذاء معيله وصديقه ميللر، متجاوزاً أي معيار أخلاقي لمن مدّ إليه يد العون.

أما أشعب فاقتحم منزلا يُقام فيه حفل زواج مهددا صاحبه: "يا صاحب البيت! فرفع الرجل رأسه قائلاً: ما لك؟ فقال أشعب: أيهما أحب إليك، تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل، أو أرمي بنفسي رأسياً من هذا العلو فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتماً؟! ثم جعل أشعب يجرّ سراويله، كأنه يريد أن يعدو ويرمي بنفسه .. فجعل صاحب الدار يقول: اصبر، ويلك، لا تفعل! ثم أصعد إليهم خواناً، انقضوا عليه انقضاض جوارح الطير.. وجعل ابن أشعب يأكل، ثم يشرب، ثم يأكل.. حتى لم يبق شيء يؤكل فقاموا، وعند ذاك .. انتحى أشعب بابنه ناحية ولطمه هامساً: لو جعلت مكان كأس الماء الذي شربته لقيمات. فأجاب الابن على الفور: إن كأس الماء يوسّع محلاً للقم. فتأمل أشعب كلام ابنه لحظة ثم صفعه ثانية وقال: لِمَ لم تنبهني إلى ذلك قبل جلوسنا إلى الخوان؟ (الحكيم 95)".

4- العزلة

ومن أبرز مظاهر الاغتراب **العزلة** (Isolation) وهو "أكثر ما يستعمل من وصف وتحليل دور المفكر أو المثقف الذي يغلب عليه الشعور بالتجرّد وعدم الاندماج النفسي والفكري بالمقاييس الشعبية في المجتمع (النوري 17)". والعزلة مظهر اغترابيّ تحقق في شخصية تيريكان ولم يُلحظ في شخصية أشعب. والعزلة هي ما عاشه تيريكان جزئيا في الغرفة التي منحه إياها ميللر في بيته، والمصير الذي اختاره في نهايات حياته عندمت قرر أن يعتزل العالم في مأوى للعجزة أسسه أهله: "نحو الساعة الرابعة من ذاك اليوم كان يمرّ بأزمة قلبية. نهض ذاهباً إلى المطبخ بحثاً عن مساعدة. لم يتقدم أحد رغم حالته الخطيرة لتقديم يد العون بسبب التخوف الشديد. جرى استدعاء الطبيب ولكنه كان مشغولاً، سيصل في وقت متأخر عندما سيكون حراً. عندما وصل كان قد تأخر أكثر من اللزوم. لم يتبق سوى ان ينقل على جناح السرعة وفي آخر اللحظات إلى المستشفى. كان في حالة غيبوبة عند وصوله إلى مستشفى سان–انطوان. في ذلك المساء وفي الساعة السادسة والنصف مات دون أن يستعيد وعيه. كتب بريان في 31 آب 1954 عن اللحظات الأخيرة له: (وحيداً مثل فأر، عارياً مثل آخر الصعاليك) (ميللر 113)". وفي سياق سابق بتأمل تيركان ذاته ويقول: "أنا لست في مكاني هنا، أنا رجل مدينة، وأشعر بالحاجة لرصيف تحت قدمي. لو كانت توجد مكتبة فقط يمكنني ارتيادها، مكتبة أو سينما.. أنا سجين هنا –وجال بنظراته في المكان– حيث أقضي الأيام وحيداً دون شخص أكلمه. (ميللر 79)".

5- غياب التقدير

وهي نتيجة من نواتج الاغتراب وتعمقه لدى شخصية تيركان، إذ "لم يكن يهتمّ بالجهود التي كان يبذلها كل واحد من هؤلاء الأصدقاء لضمان حياة رغيدة له، وكان يبدو وكأنه يعتبر ما يجري وكأنه يجري اعتباطياً ومن تلقاء نفسه. في بلد غني مثل هذا! فكر إذن! الأمريكيون طيبون وكرماء.. هكذا! ألا تعرفون ذلك؟ إنهم بالأحرى لا يحطمون رؤوسهم مستغرقين بتأمل أية مشكلة جدية. لقد ولدوا محظوظين، ويسهر الرب عليهم. كان ثمة ظلال من الاحتقار تنساب خلال أحاديثه وهو يشير إلى الروح العطوف للأمريكيين. كان على الدوام يهاجمنا وهو يصفنا على هيئة قرنبيطات ضخمة، جزرات، قرعات، وبهيئات منيفة من النباتات والفواكه الأخرى التي كنا ننتجها بكميات لا تنضب (ميللر 42)". وتيركان يهجس بعدم العدالة فيما حظي به الأمريكيون في بلادهم.

وبعد، فرغم هذا الكم الكبير من السمات والمظاهر الاغترابية التي اشتركت بهما شخصيتا أشعب وتيركان إلا أن أشعب تميّز بطرافته، وتيركان بسوداويته نتيجة الظروف القاسية التي عاشها في حياته، يقول عنه ميللر: "من الأكيد بأن تيريكان مسكين على الدوام. مسكين بشكل يدعو للشفقة طيلة السنوات التي عرفته بها. لم تغير الحرب شيئاً البتة، لم تقم سوى بمفاقمة يأسه (28)".

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج أبرزها:

- أهمية التوازي ونجاعته في كشف تمدد ثقافة الحيلة وشخصية المحتال في الأدب العالمي، وإيجاد آفاق جديدة للمقارنة وتقريب آداب العالم من بعضها البعض، في الموضوعات المشتركة.
- ارتبطت ثقافة الحيلة ارتباطا وثيقاً بالاغتراب، ولم تقتصر على الحاجة والفاقة، بل إن المحتال يتلذذ بإيذاء معيليه والمشفقين عليه، وكأنه يقتصّ من مجتمع قصّر في تأدية حقوقه.
- اشتركت شخصيتا العمل مثار المقارنة في جملة من السمات تمثلت في: امتلاكهما القدرة على الحوار واختيار الألفاظ والاستجداء الأدبيّ والإلحاح في الطلب. الحيلة والذكاء وسرعة البديهة. الكسل والأخذ دون بذل. وجود شخصية الباذل (الضحيّة) وابتزازه. حضور الغرابة والطرافة. المغامرة والتشرد. وحب المال. تعرية النفس وضياع القيمة. ضياع القيمة. العيش للذات ومن أجلها ومن خلال ما تمليه من قيم تتعارض مع المجتمع.
- أما أبرز مظاهر الاغتراب التي اتسمت بهما الشخصيتان فتمثلت في: الانفصال، وعدم القدرة أو اللاستطاعة، اللامعيارية، والعزلة، غياب التقدير.

المصادر والمراجع

الأصفهاني، أبو الفرج. *الأغاني*. تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ط 3، 2008.

بركات، حليم. *الاغتراب في الثقافة العربية*. بيروت: مركز درسات الوحدة العربية، ط 1، 2006.

بكار، يوسف، وخليل الشيخ. *الأدب المقارن*. فلسطين: جامعة القدس المفتوحة، ط 1، 1996.

جاب الله، خالدية. "رواية البيكارسك: خصائصها وتجلياتها في الخبز الحافي لمحمد شكري." *مجلة منتدى الأستاذ*، الجزائر، ع 12، 2012، ص ص. 143–160.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. *البيان والتبيين*. تحقيق عبدالسلام هارون، بيروت: دار الفكر، (د.ت).

الحكيم، توفيق. *أشعب ملك الطفيليين*. القاهرة: دار مصر للطباعة، (د.ت).

دوجلاس، فدوى م. *بناء النص التراثي*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.

روسو، جان ج. *العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية*. ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: دار المعارف، ط 1، 1954.

سلامي، سميرة. *الاغتراب في الشعر العباسي - القرن الرابع الهجري*. دمشق: دار الينابيع، ط 1، 2000.

الشيخ، خليل. *دوائر المقارنة*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2000.

علوش، سعيد. *مدارس الأدب المقارن*. بيروت: المركز الثقافي العربي، ط 1، 1987.

غربي، ويزة. "دور دراسات التوازي في إثراء الأدب المقارن في القرن العشرين." *مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية*، مج 6، ع 15، 2018، ص ص. 68–83.

الغمري، مكارم. *مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي*. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ع 155، 1991.

القاضي، محمد. *الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية*. تونس: منشورات كلية الآداب منوبة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1998.

القللي، محروس. *في الأدب المقارن دراسات تطبيقة معاصرة*. القاهرة: دار الجوهرة، ط 1، 2016.

كلودون، فرانسيس، وكاترين حداد. *الوجيز في الأدب المقارن*. ترجمة: عبدالقادر بوزيده، الجزائر: دار الحكمة، ط 1، 2002.

مروفل، كلثوم. "فلسفة الاغتراب بين المعنى الاشتقاقي والمفهوم الاصطلاحي." *مجلة الكلمة*، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، س 23، ع 93، 2016، ص ص. 124–138.

ميللر، هنري. *شيطان في الجنة*. ترجمة شاكر لُعيبي، عمّان: دار أزمنة، ط 2، 1999.

النوري، قيس. "الاغتراب اصطلاحاً." *مجلة عالم الفكر*، الكويت، مجلد 10، عدد 1، 1979، ص ص. 13–40.

Tiemble, René. *Comparaison n'est pas' raison, la crise de la littérature compare.* Paris: Gallimard, 1963.